تمظهرات الإساءة لشخص نبي الإسلام في فضاء الآخر الفضاء العمومي الإعلامي أنموذجا

يحياوي سيد أحمد.
د.مالفي عبد القادر
جامعة عبد الحميد ابن باديس –مستغانم-

ملخص:

لقد عمد الغرب إلى تكريس قلمه الفكري في الأدب والفلسفة والفن، بما يخدم غاية الإلغاء: إلغاء الذات المسلمة، إلغاءُ جرى التعبير عنه في مضامين الصناعات الثقافية الغربية بما فيها مضامين وسائل الإعلام، هذه الأخيرة التي وجهّت رسائلا شديدة الإساءة إلى رسول الله، فأثارت غضب الرأي العام المسلم في جميع أنحاء العالم، وهيمنت تلك الرسائل على خطابات الايدولوجيا ومحدِّدات العلاقة بين الشرق والغرب بما لم تحققه وسائل أخرى، وهنا تتوضح سلطة الإعلام وكيف يتم توظيفه كمحرّك دعائي لنشر ضبابيةٍ تُعتِّم الصورة الحقيقية لرسول الله محمّد صلوات الله وسلامه عليه.

الكلمات المفتاحية:

الإعلام – الرأي العام- الغرب - الشرق– الإسلام – الفضاء العمومي الإعلامي – الدعاية – حرية التعبير-.

مقدمة:

إن محور الجدلية الأنثروبولوجية الراهنة التي تمثل جوهر الخطاب الثقافي في ثنائية "الحوار/الصراع" ينبثق أساسا من معطيات الجدل الاتصالي عموما، والممتد إلى بداية الحياة البشرية، حينما فرضت الخاصية الاجتماعية على الإنسان الانخراط في جماعة ما بحكم مجموعة من السمات البيولوجية والإثنية، بالإضافة إلى ما تشكَّل عبر مفهوم "المجتمع المحلي" من عادات وتقاليد وتراث وطقوس تُكوِّن ما يعرف بالثقافة المحلية المرهونة بسياق التاريخ المشترك والذاكرة الجمعية، والتي تحدّد في النهاية نقاط التَّماس والتباعد بين ثقافة وأخرى، محددة بذلك اللبنات الأولى لمسار العلاقة بينها، وهي إمّا علاقة تجاذب أو تنافر.

وقد جرى التعبير عن حدود الانتماء لثقافة ما بأساليب عديدة، فكان الحوار مع ثقافة الآخر سبيلا للتواصل وإياه ولتعريفه بالمحليّ وإبراز ملامح التكامل معه، وتعبيرا حضاريا عن احترام الاختلافات الأخرى التي تؤسس زخما ثقافيا من شأنه خدمة الإنسانية لا تحطيمها، إلا أنّنا نجد اتجاها تعبيريا آخر، والذي تجلى عبر مظاهر الصراع العميق بين ثقافة غالبة وثقافة مغلوبة، وهي تناقضات حدّدتها القوة السياسية والعسكرية والاقتصادية التي تتمتع بها الثقافة الغالبة، في سعيها نحو دحض الآخر وعدم الاعتراف بوجوده إلا في ظلّ هويتها الغريبة عنه.

وفي هذا السياق، يمكن الإشارة إلى أن الاختلاف الدّيني لهُوَ أصل الصراع الحضاري، بحكم أن النسق العقائدي نسقٌ محدِّد للهوية، ولارتباطه أيضا بلغة الفرد وحتى ثقافته الشعبية وموروثه التاريخي والحضاري، ومن ذلك كان التخوّف من عقيدة الآخر تخوفا مبرَّرا، إذ أنّ سلطة عقيدة يمكن أن تؤدي إلى سلطة ثقافة على حساب أخرى.

ولعل التاريخ الإنساني خير شاهد على أن عقيدة الإسلام كانت ولا تزال أكثر العقائد حضورا وقوَّةً، قوةٌ تستمدها من صدق الدعوة المحمدية، ولتمَكُّن الإسلام -على غرار غيره من الديانات المتصلة به- من الاستلال إلى قلوب وعقول العام والخاص في الجزيرة العربية وفي بلدان العالم أيضا، شمالا وجنوبا، شرقا وغربا، في الزمن الماضي والحاضر، ما شكّل تهديدا حقيقيا للدول الأخرى التي لا تَدين به، لتجد نفسها بذلك خائرةً لا أمام عقيدة فقط، وإنّما أمام عقيدة ولغة وثقافة وذاكرة وتاريخ وحتى نمط حياة راقٍ يُحفِّز أيَّ نفسٍ بشرية على اعتناق الإسلام دونما خوف أو تردد.

وإذ ذاك تفطن الغرب إلى أنّ سلطة الإسلام تعني سلطة سياسية جبارة، لتبرز إذ ذاك المعالم الحقيقية للحروب الصليبية والاهتمامات الأكاديمية بحضارة العرب وحضارة المسلمين، والتوافد الغربي على المنطقة العربية لنهل العلوم والمعارف التي كانت أهم عوامل التطور الأوروبي، «ويدرك العالم كله اليوم، ويعي بوضوح شديد، ذلك الدور الفعال الذي لعبته شعوب الشرق الأدنى وثقافاتها وتجاربها الروحية في نشوء الحضارة الأوروبية وتطورها، فلقد كان الشرق الأدنى بالنسبة لأوروبا نوعا

من المنبع أو المصدر، الذي استمدت منه عناصر ثقافية لم تكن في متناول يديها قبل احتكاكها بهذه المنطقة الحيوية.»[1]

وتكاثفت أشكال الاحتكاك بين الشرق والغرب، لتزيد معه حدة الاحتدام والصراع الأحادي الجهة - الموجه من الغرب إلى الشرق وليس العكس- والتي لم تكن إلا تعبيرا عن "خوف الآخر الغربي من قوة الإسلام" فلجأ الغربيون إلى استراتيجيات عملية تمكنهم من تفكيك بنية العالم الإسلامي، بدء بالحروب وأشكال الاستعمار العسكرية، وصولا إلى محاولة بث ثقافتهم في عمق الثقافة العربية بشعارات واهية، أساسها تأصيل الثقافة العالمية الجديدة عبر وسائل تقنية صنعت الفرق في سبل الهيمنة، وقدمت توجها سلطويا جديدا: من قوة السلاح إلى قوة الصورة والكلمة.

ويأتي الإعلام –وخاصة السمعي البصري- على قمة الاستراتيجيات المستخدمة في الحرب الحضارية الصامتة بين الغرب والشرق، ذلك أن الصوت والصورة يشكلان معا خطة حيوية من خطط التوجيه والهيمنة.

ويكشف الواقع كيف أصبح الإعلام وسيلة تبررها غاية "الكوكبة" ومساعي الإدماج العالمي لجميع الثقافات في ثقافة واحدة تكرس مبدأ العلمانية، وإعطاء الأولوية للاستهلاك المادي، وفتح السوق العالمية بجميع منتجاتها المادية والفكرية، وإلغاء الديانات بحجة عدم قدرتها على مواكبة تطورات العصر، ولمّا كان الإسلام القوة التي تتعارض مع أهداف الغرب، عمل هذا الأخير على تشويه سمعته وربطه بالخرافة والوهم والعنف والإرهاب، واجتهد في الإساءة إلى مقدساته، ويأتي على رأس هذه المقدسات: رسول الله صلى الله عليه وسلم، بغية تشويه صورة الإسلام بدءًا بتشويه صورة نبي الإسلام، فشرع الغرب في تكثيف حملة الدعاية الإعلامية المشوّهة لشخص الرسول، وزيادة شحن العداء بينه وبين الشرق، ومادتُه في ذلك الوعي الزائف والعقل المهمين.

وفي ذات السياق، فقد عمد الغرب إلى تكريس قلمه الفكري في الأدب والفلسفة والفن، بما يخدم غاية الإلغاء: إلغاء الذات المسلمة، إلغاءُ جرى التعبير عنه في مضامين الصناعات الثقافية الغربية بما فيها مضامين وسائل الإعلام، هذه الأخيرة التي وجهّت رسائلا شديدة الإساءة إلى رسول الله، فأثارت غضب الرأي العام المسلم في جميع أنحاء العالم، وهيمنت تلك الرسائل على خطابات الايدولوجيا ومحدِّدات العلاقة بين الشرق والغرب بما لم تحققه وسائل أخرى، وهنا تتوضح سلطة الإعلام وكيف يتم توظيفه كمحرّك دعائي لنشر ضبابيةٍ تُعتِّم الصورة الحقيقية لرسول الله محمّد صلوات الله عليه.

من هذا المنطلق تأتي دراستنا لتتناول بالتفسير والتحليل حقيقة النفي الغربي لشخص رسول الله سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، مبرزة مظاهر الإساءة لشخصه عبر التاريخ في نماذج كثيرة من مضامين الوسائل الإعلامية الغربية، كما وتبحث الدراسة في الأسباب الكامنة وراء هذه الإساءة، واستقصاء علاقتها بالحدث الذي غير مجرى التاريخ: 11 سبتمبر 2001م، من أجل فهم الايديولوجيا

[1] أليسكي جورافسكي، **الإسلام والمسيحية**، عالم المعرفة، الكويت، ب ط، 1996، ص29.

التي يدعو إليها الغرب في مضامين فضاءه الإعلامي العام، هذا الأخير الذي لا يأخذ بعين الاعتبار فضاء الحرية والحقّ المخوّلين للأنا العربي المسلم.

وعليه جاء عنوان دراستنا كالتالي: "تمظهرات الإساءة لشخص نبي الإسلام في فضاء الآخر: الفضاء العمومي الإعلامي أنموذجا".

1-1-نصوص الإساءة من بدء الدعوة إلى القرون الوسطى:

عُرف رسول الله سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم في زمانه بالعفة، وطهارة النفس، وسمو الأخلاق، والصّدق والنزاهة، فكانا أنموذجا متفردا للإنسان المثالي في أتمّ أوجه الكمال، كان «بشرا لا كالبشر، نفسه مفطورة على الحب والخير والنقاء، وفي سيرته صلى الله عليه وسلم وحياته الحافلة ما يدل على طراز نادر من الرجال، ومعدن نفيس، يستحيل أن تجتمع كل هذه المناقب إلا في نبي.»[1]

وقد حاز في مكّة "موطنه الأول" على سمعة طيبة بين أهله وعشيرته، فكان شخصا مهابا مسموع الكلمة، إلى أن جاءه الوحي الإلهي والتكليف الرباني بالدعوة إلى عبادة الله وحده، أي أنها دعوة للتوحيد على نهج سيدنا إبراهيم الحنيف، ودعوة كذلك إلى اعتناق "الإسلام"، فتضاربت آراء المكيين حول ما يدعو إليه بين مؤيد ومعارض.

وفي تلك الفترة وجد أهل قريش أنفسهم حائرين ومشوشين بشأن هذه الدعوة الجديدة التي لم يتمكنوا من استيعابها، خاصة وأنها تفنِّد جميع معتقداتهم الدينية وعلى رأسها: عبادة الأصنام، وبالرغم من أن المنادي بالإسلام هو "محمّد" ذلك الرجل الخلوق الطاهر الذي عرفوه وألفوه، واعترفوا بصدقة اللامتناهي في أكثر من مناسبة وحادثة، إلا أن الكثير منهم اختلف بشأن دعوته، فمنهم من آمن دونما نقاش، ومنهم من استفهم وجادل إلى أن لان، ومنهم من رفض الإسلام وحارب نبيه وأساء إليه باللفظ والفعل، بما في ذلك بعضٌ من أهله وعشيرته، وممّا يسجل التاريخ في هذا السياق، الإساءة التي تعرض لها من طرف عمّه أبي لهب وزوجته (وصفها القرآن بحمّالة الحطب) وعمّه أبي جهل، وكذا سبِّه وشتمه وقذفه بالحجارة، ومقاطعته والعذول عن مخاطبته، وكذا تآمر أعيان مكة في ذلك الوقت على قتله، «كما وتعددت صور الإساءة المعنوية للرسول صلى الله عليه وسلم، فاتهمه قومه بالسحر، وأخرى بالجنون، وثالثة بالكهانة.»[2]

استمرت هذه الوضعية طويلا إلى أن أذن الله لرسوله بالهجرة إلى المدينة أين حظي باستقبال وحفاوة كبيرين من قبل أهلها، فقدّموا له المأوى والسند، وأيّدوه في دعوته، كما كانت علاقته باليهود "قبائل بني قريظة وبني قينقاع وبنو النضير" علاقة مسالمة سيما بعد توقيع ميثاق المدينة وإيّاهم، إلاّ

---

[1] الحافظ أبي محمد عبد الله بن محمد ين جعفر بن حيان الأصبهاني، **أخلاق النبي وآدابه**، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثانية، 1986، ص07.

[2] [2] صالح بن جمعان صالح الغامدي، **إسهام وسائل الإعلام المرئي في مواجهة الإساءة لشخص الرسول صلى الله عليه وسلم: من منظور تربوي إسلامي**، مذكرة ماجستير في التربية الإسلامية، جامعة أم القرى، السعودية، 2010، ص 100.

*معارضيه: (كمقتل الشاعر اليهودي كعب بن الأشرف على يد مسلم بسبب هجائه لرسول الله في الشعر)

أنهم تخوفوا من قدرته على التأثير في قلوب الناس وبالتالي إمكانية فرض سلطته عليهم، فأخذوا يروّجون عنه أفكارا لا تمت للحقيقة بصلة، مِن أنه لا يفقه في النبوة شيئا وما معرفته المحدودة ببعض من أسسها إلا نتيجةَ احتكاكه بأحبار اليهود ليستفيد منهم في التعرف على سِيَر الأنبياء الذين سبقوه، ومِن أنه داعٍ إلى الفتنة والتحريض على قتل معارضيه* إذ كانوا يفسرون أي موقف لهم معه تفسيرا خاطئا، ويصوبونه وفقا لمساعيهم ومخططاتهم، كما واعتبروه رجلا كاذبا يلفق حقيقة وحيه من التوراة طمعا في تقلد مناصب الحكم.

ومن قصص عداوتهم للرسول، ما فعلته العجوز أمّ قرفة حين حرّضت أبنائها الثلاثة عشر على قتله، وكذا تعرّضه للسحر، وغير ذلك من القصص المريبة التي طالت شخصه طيلة فترة مكوثه في المدينة، واستمر العداء اليهودي للإسلام والمسلمين في عهد النبي صلى الله عليه وسلم وبعد وفاته أيضا، وإلى يومنا هذا، «وعلى مستوى المعتقد الديني فإنّ (العهد القديم) لا يخلو من روح الصراع (...) ولقد لعب اليهود دورا كبيرا مريبا في التاريخ القديم والحديث والمعاصر.»[1]

أما عن النكران المسيحي لرسول الله، فيمكن أن نعود إلى فترة القرون الوسطى، وإلى حكم الأمويين في البلاد الإسلامية، حيث توسعت رقعة الإسلام ووصلت بلاد الشام، وقد برزت هنا شخصية مسيحية يوحنا الدمشقي Jean Damascène هذا الأخير الذي ألّف كتابا بعنوان De Haeresbius الهرطقة أين «ناقش الإسلام كبدعة، مشددا على أن المسلمين يتفقون مع المسيحيين في الإيمان بالإله الواحد، ولكنهم لا يعترفون بالعقائد الأساسية للمسيحية (وفي مقدمتها الطبيعة الإلهية للمسيح وصلبه) الأمر الذي يقلل -في نظره- من شأن حتى الأطروحات الصحيحة "غير الكثيرة"* التي تضمها تعاليم دينهم (تعاليم الإسلام).»[2]

فحقيقة الرفض المسيحي للإسلام، تتمثل في إعتقاد المسيحيين الراسخ بعدم وجود رسول بعد سيدنا عيسى عليه السلام، وأنّ "التجسد الإلهي في شخص المسيح" هو الذروة في حياة النبوّة والتي تحققت مع سيدنا عيسى، ولكن ظهور سيدنا محمد بعد ستة قرون من ذلك التجسد مسّ بشكل مباشر الكثير من معتقداتهم، وبالتالي رفضوه واعتبروا دعوته اتجاها وثنيا جديدا أو أنه نوع من الهرطقة، «وفي المسيحية الشرق أوسطية كانت قد انتشرت قصة خرافية مؤداها أنّ محمدا كان في البداية تلميذا للراهب النسطوري سرجيوس بحيرا، زاعمين أنه تلقى منه بعض المعلومات الأساسية عن التوراة.»[3]

ومن مسيحي الشام إلى البيزنطيين إلى الأوروبيين، امتدت رقعة الطعن في شخص رسول الله، ومقارنة بالمعارضة في بلاد الشام، فإن نظيرتها البيزنطية والأوروبية كانت أكثر وطأة من حيث أسلوب

---

[1] عبد العزيز بن عثمان التويجري، **العالم الإسلامي في عصر العولمة**، دار الشروق، القاهرة، ب ط، 2004، ص114.

*"غير الكثيرة": على حد قوله.

[2] أليسكي جورافسكي، مرجع سبق ذكره، ص61.

[3] المرجع نفسه، ص61.

التهجم على الإسلام، «فالصيغة البيزنطية (وكان ثيوفانس الواعظي (الواعظ) واحدا من أوائل أعلامها) فكانت في معظمها مؤدلجة، ناهيك عن أن المعطيات التي تقدمها عن عقيدة المسلمين -إذا قدمت- تأتي مشوهة لهذه العقيدة بصورة حادة، والحقيقة أن أوروبا تعرفت على المؤلفات الدينية والكلامية المعادية للإسلام في نموذجها البيزنطي بالدرجة الأولى.»[1]

ومما يذكر عن نموذج الإساءة الأوروبي إلى لإسلام أن: «راهب دومينيكاني (معاصر لدانتي) يزور بغداد، ويخرج على الأوروبيين بالحكاية الخرافية التالية: بما أنه لم تكن للشيطان قدرات ذاتية كافية لوقف انتشار المسيحية في الشرق، اخترع "كتابا" يمثل حلقة سط بين العهدين القديم والجديد، واستخدم لأجل هذه الغاية الشريرة "وسيطا" من طبيعة الشيطان ذاته، أما "الكتاب" فهو القرآن، بينما "الوسيط" هو محمد، الذي يجسد دور المسيح الدجال.»[2]

وفي رواية أوروبية أخرى تمّ وصف رسول الله على أنه كان «كاردنالا للكنيسة الرومانية الكاثوليكية وكانوا يطلقون عليه اسم "هاهومت" أو "مومت" أو "موميتو" الذي بعد أن قام بمحاولة فاشلة للجلوس على كرسي البابوية، هرب إلى شبه الجزيرة العربية، وبسبب تلك العقدة (عقدة الإحباط والفشل) ومن أجل الثأر والانتقام أسس ديانته الجديدة.»[3]

وصوّر سيدنا محمد في الفكر الأوروبي من زاويتين متناقضتين، الأولى على أنه ذو قوة شيطانية تقوم على السحر والشعوذة، والثانية على أنه لا يملك أي قدرة خارقة أو كرامة جلية، إذ لم يُقدِّم خوارقا تدل على اصطفائه من الله كنبي البشرية جمعاء، «وتنمو دائرة التخيل الأوروبي في هذا المجال، وصولا إلى القول بأن الإسلام أخذ فكرة الثالوث المقدس المسيحية (الأقانيم الثلاثة) ولكن ضمن توجه وثني لا توحيدي، ويزعم مروجوا هذه القصة بأن المسلمين يعبدون ثلاث كائنات جنية خفية أو ثلاثة أصنام كبرى، هي: ماهومت (محمد) وأبوللو ووتروفونيوس.»[4]

كما أن الأسماء التي اختلقوها عن النبي شكلت استهزاء حقيقيا من شخصه، «وفي اللغة الانجليزية اشتقوا في القرون الوسطى كلمة Mammet من Maumet، المأخوذة بدورها من Mohamet والتي أصبحت في بداية الأمر تدل على معنى "الصنم" ثم تطورت دلالتها إلى معنى "دمية"، "صنيعة" أو "لعبة عرائس'»'[5] ويذكر هنا –على سبيل المثال- ما جاء في وراية شكسبير "روميو وجولييت" في الفصل الثالث، المشهد الخامس:

«And then to have a Wretched puling fool,

A whining mammet, in her fortunes tender,

[1] المرجع نفسه، ص63.

[2] أليسكي جورافسكي، مرجع سبق ذكره، ص64.

[3] المكان نفسه.

[4] المرجع نفسه، ص ص65-66.

[5] أليسكي جورافسكي، مرجع سبق ذكره، ص67.

To answer: «I'll not wed, I cannot love.

ومعناها التقريبي:

وما بالك إذا كانت لديك حمقاء تعسة كالطفلة،

مثل دمية باكية، وهي في ظروف سعيدة،

وتجيبك: لن أتزوج، أنا لا أستطيع أن أحب.»[1]

1-2-نصوص الإساءة في العصر الحديث والمعاصر:

في العصر الحديث، وتحديدا ما بين القرنين السادس عشر والثامن عشر، ظهرت فئة من الباحثين المهتمين بدراسة الشرق، وكان منطلقهم نحو ذلك التعريب، وشيئا فشيئا تكاثفت الدراسات الغربية عن الثقافة الإسلامية ، «ونشير في هذا السياق إلى المبادرات الأكثر أهمية والأعمال الأشهر في تلك المرحلة التاريخية، التي هيأت في كثير من جوانبها التربة المناسبة للتقدم المطرد لعلم الاستشراف الأوروبي.»[2]

وهذا يعني أن دراسات الاستشراف لم تأت من عدم وإنما سبقتها مجموعة من الأبحاث والإسقاطات النظرية للغة العربية وثقافة الإسلام، ونورد أهمها مختصرة فيما يلي:

«-في أواسط القرن السادس عشر قام العالم الفرنسي غليوم بوستل Postel بتدريس اللغات الشرقية (بما في ذلك العربية).

-في الربع الأول من القرن السابع عشر طبع المارونيان سيونيتا وخسرونيتا في روما مؤلف الشريف الإدريسي الجغرافي "نزهة العشاق في اختراق الآفاق".

-في ذات الفترة أطلع ادوارد بوكوك العلماء الأوروبيين على تاريخ الإسلام في قرونه الأولى، من خلال ترجمته ل "تاريخ مختصر الدول" لأبي الفرج غريغوريوس (ابن العبري).

-في عام 1697 وبعد موت بارتيليمي دي-إربيلو، طُبِع مؤلفه الشهير "المكتبة الشرقية" الذي كان أول موسوعة جدية عن الإسلام.

-بين 1691-1698 نشر لودوفيكو ماراتشي أول طبعة علمية للقرآن، مترجمة إلى اللاتينية، ومرفقة بالتفنيدات الموجهة ضد الإسلام.

-في 1717 نُشِر كتاب أ.ريلان "عن الديانة المحمدية" ولعب هذا العمل دورا مهما في تغيير الكثير من تصورات الأوروبيين في تلك الفترة حول الإسلام، وقد كان للكتاب تأثير في نشر كتاب آخر بعنوان: حياة محمد من طرف الكونت دي بولينفيلي.»[3]

[1] المكان نفسه.

[2] أليسكي جورافسكي، مرجع سبق ذكره، ص81.

[3] أليسكي جورافسكي، مرجع سبق ذكره، ص ص82-83.

ويمكن القول أن آراء الأوروبيين تجاه الإسلام خلال هذه القرون قد تميزت بنوع من الوسطية، حيث تضاربت الآراء ما بين مؤيد ومعارض، وهناك من أوجه الإساءة الأوروبية الكثير من الروايات التي لا نستطيع سردها جميعا لكثرتها وتشعبها.

ويتم الانتقال الآن إلى العهد الجوهري في حياة الفلسفة، إنه عهد "فلسفة الأنوار" حيث اتسع مدى تدراس الإسلام من طرف مفكري القرن الثامن عشر، «ولقد تبلورت فكرة الصراع في الفكر الأوروربي بصورة واضحة في عصر التنوير الذي كان من أقوى مظاهره احتدام الصراع بين طبقة العلماء والمفكرين والفلاسفة والكتاب والأدباء وبين الكنيسة.»[1]

وكنموذج نجد الكاتب الفرنسي فولتير Voltaire مهتما بدراسة شخصية نبي الإسلام، وظهر هذا في مسرحيته التراجيدية "ماهومِت" وقد كتبها بناء على ما وجده في مؤلفات راجت في عصره مثل: «حياة محمد للكونت دي بولينفيليو، سيرة محمد لجان غرينيه، وكذلك الترجمة الإنجليزية للقرآن التي قام بها جورج سيل»[2] مع اهمال شبه تام للوقائع التاريخية وحقيقة السيرة النبوية، «لقد رأى فولتير في شخص النبي محمد نموذج التعصب الديني، والطغيان الثيوقراطي، الذي يستغل مشاعر الناس البسطاء ومعتقداتهم الساذجة لأجل بلوغ غاياته الشريرة، وبهذا الصدد كتب فولتير إلى بعض أصدقائه قائلا: إنني أصور محمدا متعصبا، عنيفا، محتالا... وعارا على الجنس البشري، الذي من تاجر أصبح نبيا، مشرعا وملكا... محمد إنه يجسد خطر التعصب.»[3]

ولقد كان "الإسلام" أنذاك مرتكزا بحثيا مهما اتسمت به الكتابات الغربية التي تتناول الحديث عن سِير الشرق عموما، والنبي محمد خصوصا، وبناء عليه يمكن القول أنه في أروبا (القرن الثامن عشر) أُلبِس الإسلام حلة أخرى، مشحونة بمضمون ايديولوجي جديد، حيث أنه يستخدم الآن ليس فقط من قبل فرق وجماعات مسيحية مختلفة ومتعارضة في المنافسات والمناظرات اللاهوتية والمذهبية فيما بينها، وإنما من طرف أنصار نظرية التقدم في مجادلاتهم ضد القوى المحافظة والتقليدية.»[4]

وبدء من النصف الثاني من القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، أخذت تلك الدراسات بعدا فلسفيا، تبحث في سبل الحوار الإسلامي المسيحي ومن أبرز أصحابها: «الفيلسوف الروسي فلاديمير سولوفيوف والمستشرق الفرنسي وعالم الإسلاميات والتصوف لويس ماسينيون واللذان يشكلان برأينا الإرهاصات الأولية، الممهدة فلسفيا ولاهوتيا للحوار الإسلامي المسيحي.»[5]

ومن هذا المنطلق، بدأت أولى الأسس النظرية التي تناقش جدلية العلاقة شرق/ غرب، فلم تعد الدراسات والأبحاث تتحدث في أغلبها وبشكل صريح عن الإسلام/ المسيحية/ اليهودية، وإنما تم تغليف

[1] عبد العزيز بن عثمان التويجري، مرجع سبق ذكره، ص114.
[2] أليسكي جورافسكي، المرجع نفسه، ص86.
[3] أليسكي جورافسكي، مرجع سبق ذكره، ص86.
[4] المرجع نفسه، ص87.
[5] المرجع نفسه، ص95.

البعد الديني بطابع آخر، تحكمه طبيعة الاختلاف الإثني بين ثقافة الشرق الإسلامي وثقافة الغرب اللاإسلامي، وأخذت التوجهات البحثية الغربية تؤسس لمبادئ المقاربة الفلسفية الجديدة: صراع/ حوار الحضارات.

وقد أكد عديد المفكرين والفلاسفة الغربيين أن الصراع الحضاري هو الأصل القاعدة الأساسية التي تفسر طبيعة العلاقات ما بين المتباينين ثقافيا، والتي أخذت مع الوقت بعدا سياسيا وايديولوجيا محوريا، خاصة مع بروز قوى عالمية ساعية إلى فرض ثقافتها على الكلّ الآخر، «وربما جاز لنا أن نقيس شيوع مصطلح (صراع الحضارات) بما كان يروج خلال فترة الحرب الباردة من مصطلحات ذات حمولة ايديولوجية ومضامين سياسية هي البضاعة الفكرية التي كانت تطرح للتسويق على الصعيد الدولي، في تلك الحقبة التي أعقبت الحرب العالمية الثانية والتي استمرت إلى سقوط حائط برلين، ثم انهيار الاتحاد السوفياتي وما استتبع ذلك الانهيار من انحلال الكتلة الشرقية الأوروبية بالكامل.»[1]

وموضوع "الشرق" لم يكن في واقع الأمر إلا تعبيرا عن موضوع "الإسلام" الذي كان ولا يزال محط اهتمام وترصد من الغرب، وقد زادت حدة الخطاب الصراعي ضد الإسلام في فترة الأحادية القطبية للولايات المتحدة الأمريكية التي أرادت جمع ثقافات العالم تحت لواءها، بما فيها الثقافة الإسلامية التي تعتبر أكبر مهدد لأمريكا، نظرا لعلم هذه الأخيرة بقوة الإسلام كدين، فأخذت تتولى مهمة التسويق الخاطئ عنه حتى تحدّ من اعتناقه، كما وعملت على بث ثقافة الكوكبة في بلدانه، وعلى تشويه صورته وصورة النبيّ محمد في أعين الغربيين وحتى الأجيال المسلمة.

ومما يذكر في الزمن الراهن من مظاهر الإساءة إلى رسول الله، بعض النصوص الفكرية والأدبية التي أساءت إليه أشد إساءة، ونذكر منها:

-رواية آيات شيطانية Les Versets sataniques للروائي البريطاني من أصل هندي سلمان رشدي، والصادرة بتاريخ 26 سبتمبر 1988م، والتي أساءت في أحد فصولها إلى رسول الله، ومباشرة بعد نشرها منعت الهند راشدي من دخول البلاد، ووقعت مظاهرات في عديد البلدان الإسلامية وحتى الأجنبية التي يقطنها مسلمون ومن ذلك نذكر: بنغلاديش والسودان وجنوب أفريقيا وكينيا وجمهورية تنزانيا المتحدة وإندونيسيا ولندن وطهران وإسطنبول والخرطوم ونيويورك ، حصلت خلال عمليات الاحتجاج حادثتين وهي حادثة حرق أعداد كبيرة من الكتاب في برادفورد بالمملكة المتحدة: 14 يناير 1989م، والحادثة الثانية هي صدور فتوى من الخميني في 14 فبراير 1989م بتحليل دم سلمان رشدي، وهاتان الحادثتان لقيتا تغطية واسعة من قبل وسائل الإعلام الغربية حيث أُتُّهِم فيها المسلمون بالبربرية وعدم السماح بحرية التعبير.

ويوجد أيضا كتيب كاريكاتيري محمد صدق أو لا Mohammed believe it or else سنة 2001م كمحاولة للحد من تغلغل الإسلام في أواسط السود القاطنين بالولايات المتحدة الأمريكية، والذي

[1] عبد العزيز بن عثمان التويجري، مرجع سبق ذكره، ص111.

نشرته شركة كيرسنت مون ببليشنغ CRESCENT MOON PUBLISHING، لحساب رسام كاريكاتوري (Robert A. Morey من مواليد 1964، وهو قس ومدافع مسيحي) استعمل اسماً مستعاراً وهو عبد الله عزيز، ويطرح الكتيب نصوص الحديث والسنة النبوية بصورة مهينة مرفقة برسومات التي تهزأ من الرسول.[1]

كما ظهر أيضا كتاب آخر أساء إلى نبي الإسلام وهو بعنوان: نبي الخراب Prophet Of Doom: Islam's Terrorist Dogma In Muhammad's Own Words للكاتب الأمريكي كريك ونن Craig Winn تم إصداره سنة 2004م، والذي وصف الرسول صلوات الله عليه بقاطع طريق استعمل حسب زعمه الخداع والبطش للوصول إلى السلطة المطلقة، ولقد رد على هذا الكتاب الباحث والكاتب المصري محمد مسعد ياقوت (من مواليد 1981) في كتابه "نبي الرحمة" الذي أبرز الصفات الحميدة والجليلة التي تميز شخص نبي الإسلام، والتي تجعله سيد البشر.

1-3-نصوص الإساءة في وسائل الاتصال الجماهيري:

كما سبق وأن أشرنا إليه فيعد تاريخ 11 سبتمبر 2001م تاريخا فاصلا في حياة البشرية، لِما لعبه من دور في إحداث تغييرات جذرية فاصلة في مصير الشعوب والدول، وتطور علاقة دول الشمال بدول الجنوب، ودول الغرب بدول الشرق، لتزداد كذلك مظاهر الإساءة إلى شخصه والتي أخذت تأخذا بعدا إثنيا وحضاريا أكثر قوة وإيديولوجية من ذي قبل، إذ أصبحت الإساءة إلى رسول الله تتوجه بالأساس إلى المسلمين، أي أن رحى الصراع الغربي تجاه الشرق لم يعد مقتصرا على نكران الإسلام ونبيه فقط، وإنما وصل إلى حدّ نسب صفة الإرهاب بهذا الدين، ليظهر المفهوم الجديد: رُهاب الإسلام أو الإسلاموفوبيا «فقد أطلق الغربيون على الإسلام: إسلاموفوبيا، وهو مصطلح حديث ويعني العداء لكل ما هو إسلامي أو ما يمت بصلة قريبة أو بعيدة للإسلام، فأصبح مرادف الإسلام في قاموس العقل الغربي: الإرهاب.»[2]

وإن ظاهرة الخوف من الإسلام ليست في الحقيقة بالأمر الجديد، وإنما طرحُها من طرف الآخر الغربي كقناعة مسلّم بها وبشكل كثيف ومخطط له، هو ما استجد على تلك الظاهرة التي تعددت أوجه التعبير عنها «وفي وقتنا الحاضر تنبثق العداوة للدين الإسلامي ولنبينا محمد صلى الله عليه وسلم من أربع فئات رئيسية في العالم، إنهم رموز عدد من الكنائس الأوروبية والأمريكية الكبرى والقادة السياسيون في الكثير من الدول، دول أوروبا الغربية وأمريكا الشمالية والعديد من وسائل الإعلام الغربية.»[3]

[1] أنظر إلى: http://islamcomicbook.com/

[2] صالح بن جمعان صالح الغامدي، مرجع سبق ذكره، ص120.

[3] المرجع نفسه، ص125.

إن الإساءة في الزمن المعاصر أخذت طابعا ايديولوجيا تضليليا، «وأصبح الإسلام والمسلمون يواجهون سلسلة منظمة من الحملات ضدهم ديانة ووجودا، بدء من قانون "الحجاب" الفرنسي، وإهانة المصحف في غوانتنمو وتصريحات نخب سياسية وثقافية ضد الإسلام ومنشورات مسيئة، وصولا إلى الرسوم الكاريكاتورية التي تكرر نشرها في 22 دولة أوروبية.»[1]

وفيما يلي، عرض لأهم مظاهر الإساءة المعاصرة، في نصوص الإعلام بما يتوافق وعينة الدراسة:

-**الرسوم الدانماركية:** في 2005م قامت صحيفة دانماركية مشهورة بإقامة مسابقة لرسم كاريكاتوريعن النبي محمد صلى الله عليه وسلم :

«1-في 30 سبتمبر 2005م، نشرت صحيفة يولاندز بوستن Jyllands-Posten المحافظة الأوسع انتشارا في الدانمارك تحت عنوان: وجوه محمد، إثنا عشر رسما كاريكاتوريا للنبي محمد عليه الصلاة والسلام، وطالب ممثلوا المسلمين في الدانمارك بسحب هذه الرسوم والاعتذار رسميا عن نشرها.

2-وفي 12 أكتوبر2005م، رئيس تحرير الصحيفة الدانماركية يعلن تلقيه تهديدات بالقتل، والصحيفة توظف حراسا لحماية صحفيها وهيئة تحريرها في كوبنهاغن.»[2]

قامت العديد من الدول الإسلامية باستنكار الرسومات، ومن ذلك قيام المملكة العربية السعودية بسحب سفيرها في الدانمارك للتشاور، وقامت ليبيا بإغلاق سفارتها في الدانمارك وصدرت إدانات من جهات مختلفة منها: حزب الله اللبناني، وهيئة علماء المسلمين في العراق، وبرلمان دولة الكويت، وبرلمان مصر، وبدأت في كثير من بلدان العالم الإسلامي الدعوة لمقاطعة المنتجات الدانماركية، كما أُحرِقت السفارة الدانماركية والنرويجية بسوريا والسفارة الدانماركية بلبنان، وسُحِب أيضا السفير الليبي من الدولة المسيئة إلى الرسو، كما اقتحم المتظاهرون الأندونيسيون مبنى السفارة الدانماركية وأحدثوا أضرار جسيمة بها، وطردت إيران البعثة السياسية الدانماركية والصحفيين الدانماركيين من أراضيها، أما عن رد الفعل الدانماركي فيظهر اتجاهين، أولهما «أن الديمقراطية وحرية التعبير هو الشعار الذي رفعته دولة كالدانمارك لتبرر التطاول على الإسلام وتكرار الإهانات لأشرف خلق الله محمد عليه الصلاة والسلام.»[3]

وبرز الاتجاه الثاني كتعبير عن وعي بفعل الإساءة، «حين نشرت صحيفة دانماركية مقالا ينتقد فيه اثنان وعشرون من الدبلوماسيين الدانماركيين، جميعهم من السفراء السابقين الذين عملوا في دول

---

[1] المرجع نفسه، ص13.

[2] سمير بودينار، **الرسوم الدانماركية... أزمات القيم والهوية وآفاق الفعل الشعبي (تقرير تركيبي): دراسة في تأصيل المفهومات والمناهج**، مجلة البيان، دراسة منشورة على الرابط الإلكتروني: http://www.albayan.co.uk/Files/articleimages/takrir/4-2-5.pdf (تاريخ الزيارة: 10 جوان 2014، على الساعة: 19:20).

[3] صالح بن جمعان صالح الغامدي، مرجع سبق ذكره، ص101.

إسلامية وقالوا: إن الحريات الدينية وحرية التعبير هما من الحريات التي يضمنها الدستور، لكن استخدام حرياتنا لإهانة أقلية دينية عمدا، ليس من السمات الدانماريكية».[1]

وتوالت مظاهر الإساءة في عدد من الصحف منها مجلة مغازينت المسيحية النرويجية سنة 2006م، والصحف الفرنسية: فرانس سوار France soir ولوموند Le monde وليبراسيون Libération سنة 2006م، وعدد آخر كبير منها في عديد دول العالم الغربي.

-**فيلم الخضوع:** وهو فيلم هولندي قصير أنتج سنة 2004م، كاتبة السيناريو هي الصومالية أيان حرسي علي، من إخراج الهولندي ثيو فان غوج، تناول الفيلم موضوع المرأة من منظور إسلامي (منظور خاطئ منافي لحقيقة الإسلام).

وإن كلمة Submission تطرح في الثقافة الغربية على أنها كلمة توازي كلمة: إسلام، ولو أن اللفظ الأجنبي يعبر عن التسليم.

قُدمت في الفيلم أربعة نساء يمثلن الوضع الاعتيادي للمرأة المسلمة، وقامت كل واحدة منهن بمخاطبة الخالق أثناء الصلاة، كانت النساء يلبسن ثوبا أسودا شفافا جدًا من الأمام يظهر أجسادهن وعليها آيات قرآنية، مع خلفية ضخمة كتب عليها: قرآن كريم، ونماذج النسوة هي:

الأولى: التي تتسآل عن الذنب الذي اقترفته حين أقامت علاقة جنسية مع شاب أحبته، وهي تستنكر معارضة الله لحبها وللأمر بعقابها عقوبة الزاني، هذه العقوبة التي تلقتها حقا.

الثانية: التي زُوّجت بدون رضاها لرجل مسلم (تم إظهاره على أنه بشع المنظر ذو رائحة عفنة لا تزول حتى لو استحم) واضطرت لطاعته امتثالا لآيات لقرآن، بينما كان زوجها يتفنن بضربها ضربا مبرحا معللا ذلك بأن الشريعة تقتضي منه وضع لكماته على وجهها إذا أظهرت عدم الاحترام، وكيف أن أوامر الله تقيد حريتها وتمنعها من أن تدين بغير الإسلام.

الثالثة: هي الفتاة الصغيرة الساذجة التي لا تغادر البيت وتحلم يوما أن تشعر بنسيم الهواء يداعب شعرها، تتحدث هذه الفتاة مع الله أثناء صلاتها باستهزاء عن البيئة المحافظة والرجال الذين أمر الله أن يكونوا قوّامين على النساء، وتظهر معنى القوامى المتجسدة في عمها حكيم (أخ والدها) الذي يدخل عليها غرفتها ويأمرها بلمس جسده، عند محاولتها لصده في إحدى المرات يثور ويمزق خمارها وملابسها الداخلية ويغتصبها بوحشية، في حين يستنكر الأب اعتراف ابنته بوحشية العم، معتبرا ذلك قذفا وإهانة لأخيه.

الرابعة: تستهزئ من الله وتقول له: أين أنت؟ وكيف أنها تناديه وتناشده وهو لا يرد عليها.

تمّ عرض الفيلم في 29 أوت 2004م على شبكة تلفزيونية ليبرالية في هولندا، فأثار ردود فعل ساخطة من طرف المسلمين دفاعا عن نبي الإسلام، وانتهت ردود الفعل تلك بمقتل المخرج من طرف شاب مغربي مقيم بهولندا.

[1] صالح بن جمعان صالح الغامدي، مرجع سبق ذكره، ص101.

-**فيلم براءة المسلمين** (L'innocence des Musulmans) فيلم أمريكي معادي للإسلام، أنتج سنة 2012م، لا تُعرف هوية منتج الفيلم ولا مخرجه، إلا أنّ أصابع الاتهام تتجه نحو: نقولا باسيلي نقولا، وهو أمريكي من أصل مصري، وقبطي مدان سابقا بتهم احتيال.

يصور الفيلم نبي الله محمد صلى الله عليه وسلم بأبخس الأوصاف التي لا يمكن للباحث صراحة الخوض فيها بالتفصيل، وقد أدان الرأي العام المسلم هذا الفيلم، وتجلى ذلك عبر الاحتجاجات التي قام بها المسلمون أمام السفارات الأمريكية في العديد من الدول الإسلامية، وانتهى الأمر بمقتل أربعة دبلوماسيين أمريكيين (منهم السفير الأمريكي كريستوفر ستيفنز) في سفارة أمريكا بليبيا.

قائمة المراجع:

- أليسكي جورافسكي، **الإسلام والمسيحية**، عالم المعرفة، الكويت، ب ط، 1996.

- الحافظ أبي محمد عبد الله بن محمد ين جعفر بن حيان الأصبهاني، **أخلاق النبي وآدابه**، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثانية، 1986.

- صالح بن جمعان صالح الغامدي، **إسهام وسائل الإعلام المرئي في مواجهة الإساءة لشخص الرسول صلى الله عليه وسلم: من منظور تربوي إسلامي**، مذكرة ماجستير في التربية الإسلامية، جامعة أم القرى، السعودية، 2010.

- عبد العزيز بن عثمان التويجري، **العالم الإسلامي في عصر العولمة**، دار الشروق، القاهرة، ب ط، 2004.

- أنظر إلى: http://islamcomicbook.com/

- سمير بودينار، **الرسوم الدانماركية... أزمات القيم والهوية وآفاق الفعل الشعبي (تقرير تركيبي): دراسة في تأصيل المفهومات والمناهج**، مجلة البيان، دراسة منشورة على الرابط الإلكتروني: http://www.albayan.co.uk/Files/articleimages/takrir/4-2-5.pdf (تاريخ الزيارة: 10 جوان 2014، على الساعة: 19:20).